١ ـ العلم وحده لايكفى

أول تساؤل يطرحه الكتاب هو: هل يكفى العلم؟ وهو بالطبع ليس تساؤلاً استفهامياً بل استنكارياً يقصد النفى. فالعلم وحده لايكفى أبداً. ولا أحد فى الدنيا يحيا ليلاً ونهاراً مكتفياً بالعلم وحده. فلابد وأن تكون التجربة الإنسانية غنية وقادرة على استيعاب كل أبعاد مواجهة الإنسان للعالم.

خصوبة التجربة الحية الماثلة وثراء الاعتبارات والبصيرة التى تجعل الحياة جديرة بأن تعاش.. كل هذا لايمكن اعتباره مجرد ظاهرة ثانوية فرعية للمادة، كما يرى غلاة المتطرفين فى هذا أصحاب المذهب الردى Reductionism الذى يرد كل شىء إلى المادة وحركاتها فى الزمان والمكان ويرى كل الظواهر ترتد فى النهاية إلى حدود الفيزياء كظواهر مادية أو ظواهر فرعية لها، وما لايقبل الرد بحال يعد خرافة أو وهماً.

أمثال هؤلاء الرديين ينكرون الوجود الواقعى للمعنى والقيمة والغرض، وفى النهاية يضطرون إلى الإقرار بضرورة وجود قيم خلقية واعتبارات إنسانية، ولانملك إلا أن نسألهم بدهشة: أين سنجد لها مكاناً فى عالمهم المجرد العارى؟!

إن التبسيط المفرط الذى ينطوى عليه المذهب الردى يجعله غير كافٍ بحال. فلا يكفى حتى لاستيعاب عملية البحث العلمى، التى سنرى أنها تستلزم قيمها الخاصة بها. فضلاً عن أن العلماء تعوزهم القيم التى تجعلهم يحسنون التصرف فى القوة التى يهبهم العلم إياها.

لذلك فالعلم وحده لايكفى، حتى لاستيعاب ذاته. إنه منشط إنسانى، ولابد من استبصاره ـ كما اتفقنا ـ فى السياق الإنسانى الأرحب. فكان هدف هذا الكتاب منذ البداية الذهاب إلى ماوراء العلم لاستكشاف ذلك السياق الإنسانى الأرحب، والذى يجرى فيه العلم ذاته.

ولكن لابد قبلاً من الدفاع عن العلم بوصفه مصدراً للمعرفة الموثوق بها فى مجالها الخاص بها وهو تفهم العالم الفيزيقى. وقد بات هذا الدفاع ضرورياً طالما أصبحنا فى عصر مابعد الحداثة الذى ينقض قيم التنوير والصدق اليقينى والإيمان بالعقل.

ربما كان علماء من حيث هم علماء لايملكون المعرفة الكافية بكل الأبعاد، ولكنهم يثقون بمعتة ـ جوهرى مؤداه أن الحقيقة يمكن البحث عنها ويمكن أن نجدها. وفى هذا وذاك يحصدون معارف ثمينة تستحق الدفاع عنها، كما سنفعل فى الفصل التالى.